تزكية النفس البشرية في ضوء القرآن الكريم

د. عبد العزيز إبراهيم محمد عمر*

تمهيد

اللهم لك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملْءَ السموات و ملْءَ الأرض و ملْءَ ما بينهما وملْءَ ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

وأشهد أن لا إله إلا الله إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، أرسله الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بكرمك وجودك يا جواد يا كريم.

أما بعـد...

فمع طغيان موجة المدنية الجارفة الزائفة، ومع الإسفاف والإخلاد إلى الأرض لإشباع الغرائز وتحصيل اللذائذ واستكبار قوى البغي والطغيان التي تريد أن تملك الحرث والنسل دون مراعاة للأخلاق ولا رحمة بالإنسانية، يمد العالم الغريق يديه للأمة الوسط لتنقذه بحبل الله ولتعيده لبر الأمان وجادة التوازن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣].

فإذا نظر المسلم لأمة الإنقاذ والوسطية، وجد بعضها قد جرفه التيار وبعضها قد آثر الراحة والسلامة والترف والدعة، ولكن شاءت إرادة الله سبحانه أن يجعل الخير في الأمة موصولاً إلى قيام الساعة، وأن تظل طائفة منها مرابطة وداعية إلى الحق، التزاماً، ودعوة، وسلوكاً، ومنهجاً، وجهاداً، وهؤلاء لابد لهم من فقه طريق البداية حتى يجري الله سبحانه على أيديهم الخير لهم ولأمتهم وللناس أجمعين.

وطريق البداية واحد لامرية فيه، ألا وهو تزكية النفوس، وإصلاحها، وتعميرها بالطاعة، فهو شرط التغيير، وطريق كل خير، وسلام بإذن الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

---

* أستاذ مساعد بقسم القراءات، كلية أصول الدين، جامعة أمدرمان الإسلامية.

ومن هنا كانت الكتابة في هذا البحث: تزكية النفس البشرية في ضوء القرآن الكريم، وأعلم أن المتأخرين عيال على السابقين في هذا المجال، ولكن وجدت أن الأوائل كتبوا فيه بأساليب راقية، وعبارات أصبح بعضها غير مألوف لدينا، فضلاً عن التطويل والتحليلات العميقة التي لا يسبر غورها ويأخذ من معينها بعضنا.

لذا حاولت الاقتباس والاختصار، وأهمّ ما يميز هذا البحث - ولله الحمد والمنة في ذلك - تزكية النفس البشرية في ضوء القرآن الكريم، حيث تناول الباحث فيه الموضوع ببعض التفصيل، وربط الموضوع بالدليل النقلي ما أمكن، وإفساح المجال للشواهد والأدلة، وإن نقلت من كلام السلف والعلماء فهو السهل إن شاء الله.

وسأحرص على الاختصار، وقلة التعليقات والتحليلات، مستفيداً من أكثر ما كتب قديماً وحديثاً، ومن محاضرات مشايخ الدعوة وعلمائها، وما فتح الله سبحانه به عليّ من خواطر وإضافات جديدة، أما وسائل التزكية فكلها من القرآن الكريم، ومن آثاره ﷺ، ومما نبه إليه الصحابة ﷺ والسلف الصالح، و سأختصر في ذلك ما أمكن، وسأصب جل اهتمامي في بيان أثر الوسيلة في إحداث التزكية أو الارتباط بينهما، دون التعمق في بيان كيفية ذلك، من مراعاة الشروط المختلفة، فهذه معروفة ومذكورة في الكتب التي تعرضت لهذه الوسائل بالتفصيل.

وأخيراً أقول: إن هذا البحث تذكرة لنفسي ولإخواني وعذري فيه قول الرسول ﷺ: ((رب حامل فقه ليس بفقيه))(١).

وأسال الله جلّت قدرته، وتعاظم شأنه، أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم التناد إنه أكرم مسؤول، وخير مأمول، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الفصل الأول: معنى التزكية وأهميتها وحاجة الأمة إليها

١. المبحث الأول: معنى التزكية.
٢. المبحث الثاني: مكانة التزكية من الدين وخطورة إهمالها.
٣. المبحث الثالث: حاجة الأمة إلى أهل التزكية.
٤. المبحث الرابع: أهمية التزكية في الدعوة الإسلامية.

المبحث الأول: معني التزكية

التزكية لغة: يدور معنى «الزكاة» في اللغة حول النمو، والزيادة، والبركة، والطهارة، والصلاح، والثناء الجميل(٢). والفعل منها: «زكا، يزكو»، وعلى هذا فالتزكية - وهي المصدر المتعدي - معناها: التطهير

والإصلاح وفعل ما يؤدي إلى البركة والزيادة والثناء الجميل، والفعل منها: «زكا، يزكو»، وهذه المعاني وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[النور: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾[التوبة: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾[الشمس: ٩]. وهذه الآيات محور حديثنا في هذا البحث، كما وردت التزكية بمعني مدح النفس والثناء عليها. وهذه التزكية مرفوضة إلا لضرورة شرعية – وليست موضع حديثنا – قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النجم: ٣٢]، ويقول أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[النساء: ٤٩]. قال القرطبي: "فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه إلا لضرورة"(٣).

التزكية في اصطلاح العلماء: ليس هناك فرق كبير بين التعريف الاصطلاحي والتعريف اللغوي، فهو مبني عليه، ومن التعريفات الاصطلاحية تعريف الأستاذ الشيخ أبي الحسن الندوى لها بقوله: "نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية، وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية، ويدعو إلى كمال الإيمان، والحصول على درجة الإحسان، والتخلق بالأخلاق النبوية، واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنية، وكيفيته الإيمانية: «التزكية» أو «الإحسان» أو «فقه الباطن»"(٤).

وعرفها الأستاذ سعيد حوىّ بقوله: "زكاة النفس تطهيرها من أمراض وآفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها بأسماء وصفات، فالتزكية في النهاية تطهير وتحقّق وتخلّق"(٥).

وقال في موضع آخر: "التزكية هي تخليص النفس من نجاساتها، ومن شهوانيتها الخاطئة، وحيوانيتها الهابطة، ومن منازعتها الربوبية وتخليصها من كل أنواع الظلمات، وإنما بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام لمثل هذا"(٦).

المبحث الثاني: مكانة التزكية من الدين وخطورة إهمالها

ليست التزكية شيئاً عارضاً أو هيناً في ميزان الإسلام، ولكنها الهدف الأسمى للإسلام، وشعبة عظيمة من شعبه، ويكفي أن الله ﷻ جعلها من المهام التي أرسل لها نبيه محمداً ﷺ، جعل ذلك في مواضع كثيرة من القرآن منها قول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران: ١٦٤].

وليس أدلّ على أهميتها أيضاً من أن الله ﷻ جعل الفلاح في فعلها والخيبة والخسران في إهمالها، فقال، بعد أطول قسم في القرآن الكريم كله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩-١٠]. جاء في تفسيرها: أي فاز وسعد وأفلح من زكّى الله نفسه أو زكا هو - أي العبد - نفسه بالطاعة، والعمل الصالح، والتقوى، وفعل كل مطلوب، والظفر بكل محبوب لله ورسوله ﷺ(٧)، «وقد خاب من دساها»: أصل «التدسية»: الإخفاء ومنه قوله تعالى : ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[النحل: ٥٩].

فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى عن الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق(٨).

وروى مسلم والنسائي وابن ماجه وابن المنذر عن ابن مسعود ﷺ قال: ((ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[الحديد: ١٦] إلا أربع سنين))(٩).

ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: ((إن الله يستبطئكم بالخشوع))، قالوا عند ذلك: خشعنا. وقال الحسن البصري: ((استبطأهم وهم أحبُّ خلقه إليه))(١٠).

فإذا كان هذا الكلام قد قيل في أصحاب النبيﷺ - أو بعضهم - وهم الذين قطعوا في الطريق إلى الله أشواطاً بعيدة، ونزل في فضلهم وكرامتهم وهمتهم العالية ما نزل، واستقرَّ لهم من السيادة بين الناس ما هو معروف، فما حكم التزكية في حقنا نحن، وقد خضنا في لجج المادة حتى الأعناق، وراودتنا الدنيا بمفاتنها ومباهجها وأحاطت بنا الفتن كالسوار في المعصم، وتوالت علينا المحن، وتتداعى علينا الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ؟!

لهذه الأهمية كان النبي ﷺ يسأل ربه أن يزكي نفسه، ويتعوذ به مما يخالف ذلك فيقول: ((اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إنيّ أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها))(١١).

المبحث الثالث: حاجة الأمة إلى أهل التزكية

قد عرضنا شيئاً عن أهمية التزكية ومكانتها من الدين، أما رجالها المرابطون عليها علماً وعملاً فهم الروح الذي يسري في هذه الأمة، فيحيها بإذن الله، ويستنقذها من ركامها وسباتها ووحدتها، وهم أملها في كل غبراء مظلمة، وهاديها في طريقها إلى الله.

وعنهم يقول الأستاذ الندوي:"يجددون هذا الطلب النبوي لكل عصر، وينفخون في الأمة روحاً جديدة من الإيمان والإحسان ويجددون صلة القلوب بالله، والأجسام بالأوراح، والمجتمع بالأخلاق والعلماء بالربانية، ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات، وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا، وفي الخواطر قوة مقاومة

صلات الملوك وسياطهم ووعدهم ووعيدهم، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر، والاحتساب على الملوك والأمراء والاستهانة بالمظاهر والزخارف، والقناعة باليسير، فيستطيع أحدهم أن يقول - وقد طلب منه أن يقبل يد الملك ليرضى عنه -: يا مسكين، والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده ؟!

يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في واد. ويقول بعضهم وقد عرض عليه ملك بلاده أن يقبل شيئاً آتاه الله من الخير الكثير: إن الله يصف هذه الدنيا بطولها وعرضها بالقلة والخسة فيقول: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[النساء: ٧٧]، وقد «رزقك الله جزءً صغيراً من قطعتها الصغيرة فلا أصيبك وأفجعك فيه»، ويمدُّ أحدهم رجله إلى أمير جبار، ويرسل إليه هذا الأمير صرّة من الذهب فيرفضها قائلاً: إن من يمدّ رجله لا يمدّ يده"(١٢).

الفصل الثاني: ثمرات التزكية

١. المبحث الأول: أهمية التزكية للمجاهدين والمصلحين والعلماء والدعاة.

٢. المبحث الثاني: أهمية التزكية للنجاة من المكائد والمصائب والخروج من الأزمات وإيجاد الرزق.

٣. المبحث الثالث: أهمية التزكية لقوة الجسد وراحته وسلامته والألفة مع الخلائق.

٤. المبحث الرابع: أهمية التزكية للسعادة والطمأنينة والأنس والشرف والذكر.

٥. المبحث الخامس: أهمية التزكية في الثبات والنجاة من الفتن والتقلبات وتحقيق مظاهر العبودية.

المبحث الأول: أهمية التزكية للمجاهدين والمصلحين والعلماء والدعاة

النصر آتٍ لا ريب فيه، لأنه وعد مفعول تكفل به مولانا جلّ في علاه وبشرّ به في كتابه الكريم رسوله العظيمﷺ، وهو موهبة من عنده سبحانه، ولكنه جلّ شأنه لا يضع الشيء في غير موضعه، ولا يعطي النصر للمفرّطين أو المقصرّين أو الكسالى، بل لابد له من عدة، وأول هذه العدة الإقبال على النفس بتزكيتها وتربيتها وتصفيتها من الرذائل والذنوب. وقد كان بعض المتحمسين المتعجلين في مكة يريدون المواجهة المسلحة مع الباطل، فأمرهم الله تعالى أن يدعوا ذلك ويربوا أنفسهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[النساء: ٧٧]. فلما حانت ساعة الجدّ وأذن الله للمؤمنين في القتال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾[النساء: ٧٧](١٣).

وإذا رجعنا إلى تاريخنا وجدنا النصر مطرداً مع التزكية والتربية، ووجدنا الهزيمة مطردة مع إهمالها أو التقصير فيها، ولنرجع مثلاً إلى غزوة بدر وغزوة أحد، ولنقارن بين الأحزاب وحنين، ولننظر للدولة

الإسلامية في أيام عزها وسيادها، وأيام ضعفها وهزيمتها، بل لنأخذ العبرة من معركة واحدة وجيش واحد، هو جيش طالوت. ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: "وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾[غافر: ٥١]. وقال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾[الصف: ١٤].

فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بتكالب عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه؛ إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه"(١٤). قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[الشورى: ٣٠].

وبعون الله وتوفيقه سأذكر بعضاً من الشواهد القرآنية الموجزة على هذه الحقيقة وكذلك من السنة الشريفة وسيرة الخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان من القادة الفاتحين المجاهدين في العصور المختلفة:

فمن القرآن الكريم

١. يقول الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[آل عمران: ١٤٦-١٤٧]، فقد طلبوا مغفرة الذنوب وتصفية النفس مما علق فيها من الران قبل طلب النصر، وقبل لقاء العدو؟!

٢. ولما توعد الله ﷻ بني إسرائيل توعدهم بأناس لهم عوامل النصر وأولها أنهم أهل عبودية لله قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾[الإسراء: ٥]، فذكر العبودية وصدق الانتساب إليه ﷻ قبل القوة الحربية وفنون القتال المختلفة.

٣. ولما توعدهم في المرة الثانية أخبرهم بأن الآخرين سيكونون بنفس المواصفات الأولى، من العبودية، والانتساب إليه، والإنابة له، والتمسك بحبله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الإسراء: ٧]، أي: إلى نفس الروح الأولى والمواصفات الأولى.

٤. وفي القرآن الكريم نجد التزكية ملازمة للجيوش المؤمنة في كل حركة ومعركة وموقف، فهي قبل اللقاء وعند المواجهة وبعد اللقاء وفي كل حال يتعرض لها الجيش، يقول تعالى عن المؤمنين قبل بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال: ٩]، ويقول عن جيش طالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا

لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾[البقرة: ٢٥٠].

٥. ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الأنفال: ٤٥]، وبعد النصر والتمكين والتأييد لا مجال للتفاخر والكبر واللامبالاة، بل هو الخشوع والتواضع والتزكية وشكر الله على النعم والآلاء قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾[النصر: ١-٣].

٦. ويخبرنا القرآن الكريم أن ضعف تزكية النفس من أهم عوامل الهزيمة والفشل فيقول تعالى مبيناً أسباب هزيمة أحد: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾[آل عمران: ١٥٢].

٧. وبين سبب الفرار وهو من أسباب الهزيمة فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾[آل عمران: ١٥٥](١٥).

ومن السنة النبوية والسيرة العطرة

١. عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: ((لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ أنظر ما صنع، فجئت وإذا هو ساجد يقول: يا حي يا قيوم، ثم رجعت إلى القتال، ثم جئت فإذا هو ساجد يقول ذلك، ففتح الله))(١٦).

٢. وعن بريدة ﷺ قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا أمرّ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً))(١٧). وكان النبي ﷺ يحرص أشد الحرص على تطهير الجيش من عناصر الخذلان والهزيمة، وأهمها الذنوب والمعاصي، وجميع المخالفات الشرعية، فتروي لنا بعض كتب السنة والسيرة أن النبي ﷺ كان يعدّل صفوف أصحابه يوم بدر، فرأى سواد بن غزية وهو متقدم في الصف فطعنه في بطنه بقدح كان في يده، وقال له: استوِ يا سواد، فقال له: يا رسول الله قد أوجعتني وقد بعثك الله بالحق فأقدني، فهيأ النبي ﷺ ليقتص منه فقال له سواد: قد ضربتني وليس علي قميص، فكشف له النبي ﷺ عن بطنه فأسرع

يقبله، فقال له ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأحببت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمس جلدي جلدك))(١٨).

والشاهد في هذا الخبر أن النبي ﷺ لم يرجئ عملية القصاص لما بعد المعركة، ولكنه أراد أن يخلص الجيش من ذنوبه، لو كانت فيه ذنوب.

نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين والتابعين والفاتحين والمجاهدين في العصور المختلفة

١. كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومن معه من الجنود: ((أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فربّ قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً. اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم))(١٩).

٢. وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: ((أيها الناس، اعملوا صالحاً قبل الغزو فإنما تقاتلون بأعمالكم))(٢٠).

٣. وقبل القادسية خطب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه و تلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[الأنبياء: ١٠٥]، وقرأ آيات الجهاد والسيف، وصلى بالناس الظهر ثم كبر أربعاً وأمرهم أن يقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله(٢١).

٤. وكان الفضيل بن عياض رضي الله عنه يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا: "عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم مالا ترده السيوف"(٢٢).

٥. وكان محمد بن واسع من التابعين، وقتيبة بن مسلم يستبشر بالنصر بمصاحبته لصلاحه وتقواه، ومما روي عنه: أنه كان مع قتيبة في جيش، وكانت الترك خرجت إليهم، فبعث قتيبة إلى المسجد ينظر من فيه، أي أنه يستطلع أحوال الجيش الايمانية، فقيل له: ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبعه يدعو، فقال قتيبة: إصبعه تلك أحب إليّ من ثلاثين ألف عنان(٢٣).

٦. وكان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله يتفقد خيام المحاربين قبل لقاء الصليبيين، فإذا رأى خيمة قائمة بالليل تصلي وتقرا القرآن وتذكر الله قال: هذه خيمة نرجو أن يأتينا النصر من قِبلها، وإذا رأى خيمة نائمة، قال: هذه خيمة نخشى أن تأتينا الهزيمة من قبلها.

وتكمن ضرورة التزكية في أن المجاهدين والمصلحين هم في حاجة إليها، لأنهم يعملون في جهات مختلفة، فهم يواجهون مخططات الكفار من الداخل والخارج، ويواجههم الطابور الخامس من أهل النفاق والدسائس في الداخل، دع عنك الأمراض الاجتماعية المختلفة من جهل وسلبية ورذائل، فضلاً عن جهادهم في الدعوة والتربية، وكل هذا لن يوفقه إلا ذو حظ عظيم من التزكية.

وقد عقد الأستاذ أبو الحسن الندوي فصلاً في كتابه «ربانية لا رهبانية» ذكر فيه عدداً من قادة الدعوة والإصلاح، ومقاومة الاستعمار والاستبداد، وبين فيه السرَّ الكامن وراء نجاح هؤلاء، وهو نفوسهم المزكاة وحسن صلتهم بالله، وذكر قائمة كبيرة منهم(٢٤)، "ومما يجدر بالذكر ويسترعي الانتباه أن تلك القوى المعنوية والروحية والشخصية الفذة، والإخلاص والربانية، والحنان والعاطفة، والإقدام والشهامة، التي نحتاج إليها للتضحية، وبذل المهج والأرواح، والجهاد والكفاح، والتجديد والإصلاح، والفتح والتسخير، لا تنشأ ولا تظهر في أكثر الأحيان، إلا بعد صفاء الروح، وتهذيب النفس، والرياضة والعبادة. ولذلك نرى أن أكثر من قاموا بدور التجديد والجهاد في تاريخ الإسلام يتمتعون بمكانة روحية سامية"(٢٥).

ويقول الندوي أيضاً: "إن تجارب الحياة الطويلة تدلنا على أن المعلومات والدراسات، أو القوانين والأشكال الفارغة، لا تستطيع أن تثير في الإنسان أدنى رغبة في الإيثار والتضحية والمقاومة فضلاً عن الفداء بمهجته وروحه، لأنه لا بد له من صلة بالله عميقة راسخة، ولذة روحية متصلة بالخالق العلي والحرص على فائدة معنوية تصغر في عينيه الفوائد المادية العاجلة"(٢٦).

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم صفوة الخلق، وصفوة الدعاة، ومع أن الله سبحانه كمّل عقولهم ومواهبهم، فإنه جلّ شأنه، أمرهم وندبهم إلى شيء لابد منه، قبل أن يتوجهوا للناس بالدعوة، ألا وهو تزكية أنفسهم أولاً.

فهذا محمد ﷺ يأمره ربه بقيام الليل حتى يستطيع أن ينهض بعبء هذه الأمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ١-٥].

ولما أرسل الله رسله بالهداية وإمامة الناس إلى الخير لم يتركهم هكذا دون توجيه إلى الزاد، فقال جل شأنه عن إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ

ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[الأنبياء: ٧٣]، والتزكية نفسها هي العدة الأهم في مواجهة كل الطواغيت في هذه الدنيا، من لدن فرعون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يقول تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾[طه: ٤٢].

ووراثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله، ومقارعة الطواغيت، والظلمة والمستكبرين، والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله شيء عظيم، لا ينهض به إلا أولوا العزائم والهمم العالية والمشمّرون إلى الله.

وهذا لا يهيأ لهم إلا إذا أخذوا أنفسهم، بما فرضه الله على أنبيائه، من ألوان التزكية، ووسائل التقرب إلى الله المختلفة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[العنكبوت: ٦٩].

المبحث الثاني: أهمية التزكية للنجاة من المكائد والمصائب والخروج من الأزمات وإيجاد الرزق

إن أهل الحق في طريقهم إلى الله معرّضون إلى الكثير من المصائب والمكائد التي تحاك لهم بمكر من أعدائهم، وأهل الإيمان جميعاً مبتلون بمحن وشدائد، وبعوارض وآفات يمتحنهم الله بها، وفي كل خير إن هم صبروا واحتسبوا، ولمواجهة تلك المكائد والخروج من هذه الأزمات وسائل مادية، مشروعة، ندب الإسلام للأخذ بها، ولكن وجدت التزكية عنصراً مهماً يعوّل الإسلام عليه كثيراً في هذه المواجهة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾﴾[البقرة: ١٠٩-١١٠].

وقد وجهنا الله ﷻ في هذه الآية لتزكية نفوسنا بعبادات جليلة، حتى نتمكن من رد كيد هؤلاء اليهود، وفي مواضع أخرى يجعل ربنا ﷻ المواجهة بالصبر والتقوى، قال تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾[آل عمران: ١٢٠].

ويوسف عليه السلام نجاه الله ﷻ مما دّبر له بالإخلاص - وهو من وسائل التزكية -: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[يوسف: ٢٤].

قال ابن القيم: "أخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء من الفعل بإخلاصه"(٢٧). وأهل الكهف نجاهم الله وحماهم بالرعب - وهم رقود - حيث لجأوا إليه سبحانه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾[الكهف: ١٠]. وإن حماية الله لنا من هذه المكائد ودفاعه عنا، إنما تكون على قدر إيماننا وعبوديتنا له، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦].

وكان السلف الصالح يقولون: على قدر العبودية تكون الكفاية، ويقول ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[الحج: ٣٨](٢٨)، يقول: "فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً، وأكثر ذكراً، كان دفع الله تعالى عنه، ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص"، أي من نقص إيمانه نقص الدفاع عنه، وهذا الأمر شائع ومشهور في سير الأنبياء الصالحين في كل عصر، حيث أدركوا أهمية التزكية بمعانيها ومظاهرها المختلفة، في النجاة من كل كيد أو محنة، ونكتفي في التدليل عليه فضلاً عما ذكرناه بقصة، وهي قصة عوف بن مالك الأشجعي، حيث جاء إلى االنبيﷺ فقال: يا رسول الله، إن ابني أسره العدو، وجزعت أمّه فما تأمرني؟ قال: آمرك وإياها أن تستكثروا من قول: لاحول ولا قوة إلا بالله، فقالت المرأة: نِعْمَ ما أمرك به، فجعلا يكثران منها فتغافل عنه العدو، فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾[الطلاق: ٢](٢٩).

المبحث الثالث: أهمية التزكية لقوة الجسد وراحته وسلامته والإلفة مع الخلائق

للخروج من الأزمات الاقتصادية، والوصول إلى مرحلة الكفاية والرزق الواسع وسائل مادية كثيرة شرعها الإسلام وحثّ عليها، ويمكن الرجوع إليها في مواضعها، ولكن وجدت للتزكية بوسائلها المختلفة في هذا الأمر وسيلة، بل انها بداية الحلول، وبعدها يوفق الله سبحانه للوسائل الأخرى، ويكلل المساعي بالنجاح. ولأمتنا في ضائقتها الاقتصادية وما تمخض عنها بتزكية النفس مخرج، وقد بين لنا كيفية المواجهة فقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الأنعام: ٤٢-٤٣]. ومعنى بالبأساء بالمصائب في الأموال، والضراء في الأبدان(٣٠).

ويعلق المرحوم سيد قطب على هاتين الآيتين فيقول: "لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم، وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة، فيرفع عنهم البلاء ويفتح لهم أبواب الرحمة، ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا، لم يلجأوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم

ترد إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم ولم تلن قلوبهم، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد''(٣١).

فاللجوء إلى الله ﷻ واستلهام المعونة منه، هو أول طريق الخلاص، وهذا ما كان النبي ﷺ يوجه إليه أهله وأصحابه، ويوجهنا معهم، فقد أخرج الإمام أحمد في الزهد وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ثابت قال: ((كان النبي ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة - الحاجة أو الفقر - نادى أهله: يا أهلاه صلّوا صلّوا))(٣٢).

ومن وسائل الرزق الاستغفار، وصلة الأرحام، والحج والعمرة، وقراءة الآيات المختارات، والبعد عن المحرمات، قال ﷺ: ((إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه))(٣٣). وقال ﷺ: ((إن للحسنة سعة في الرزق، وإن للسيئة نقصاً في الرزق))(٣٤).

المبحث الرابع: أهمية التزكية للسعادة والطمأنينة والأنس والشرف والذكر

ومن الأسرار العجيبة للتزكية أن لها أسراراً عظيمة في قوة الجسد، وراحته، وبهائه، ونضارته، وحفظه، وحمايته من المكروه والأذى، وسلامته من الأمراض والعلل، ومما يؤكد ذلك قول الله تبارك وتعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾[هود: ٥٢].

وكثير منا يعاني متاعب العمل اليومي، أو قد يعجز عن القيام بهذه المهمة وينسيه الشيطان أن التزكية هي بلسم عظيم مخفف شافٍ لا مثيل له في التخفيف لعناء الشدة وشظف العيش، فقد روى الشيخان أن فاطمة بنت محمد ﷺ أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرّحى، وتسأله خادماً فقال النبي ﷺ: ((ألا أدلكما على خير مما سألتماه؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وسبحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماه))(٣٥). وقال ابن القيم معقباً على هذا الحديث: ''إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم''(٣٦).

كما ذكر ابن القيم رحمه الله: ''من فوائد الذكر أنه يعطي الذاكر قوة حتى أنه ليفعل مع الذكر مالم يظن فعله بدونه''، ومن أعظم الوسائل لتزكية الروح وراحتها قيام الليل، حيث له أثاره الطيبة في قوة الجسد ونشاطه، وله سرٌّ عجيب في طرد الأمراض من الجسد. يقول ﷺ: ((عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسم))(٣٧).

وليست القوة فقط نصيب الجسد من التزكية، ولكنها النضارة والبهاء والجمال في الوجه والجسد، قيل للحسن بن علي رضي الله عنه: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: ((لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره))(٣٨).

وذكر ابن القيم من فوائد الذكر أنه: "يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، وقد فطن سلفنا الصالح لهذه الآثار المباركة، وظهر من أفعالهم وأقوالهم ما يؤكد ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: ((إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القبر، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق))"(٣٩).

وقال ابن رجب رحمه الله: "من حفظ الله في حياته وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله".

وتأمل أخي قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم قوتهم وضخامة أجسامهم عندما كانوا في حاجة إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم نسأل الله العفو والعافية، وقوة القلوب والأبدان.

المبحث الخامس: أهمية التزكية في الثبات والنجاة من الفتن والتقلبات وتحقيق مظاهر العبودية

كل الكائنات تدور في فلك العبودية ولايشذ عنها إلا هالك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾ [الحج: ١٨].

وكل هذه الخلائق تلهج بذكر الله عز وجل وتمجده وتقدسه، وتخضع لوحدانيته وعبوديته: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء: ٤٤].

فإذا أدرك المسلم ذلك واجتهد أن يأخذ مكانه اللائق في فلك العبودية والتسبيح، فإنه سيشعر بالقرب والألفة والمودة مع هذه المخلوقات المسبحة، وستبادله هذه الخلائق أيضاً تلك المشاعر الفياضة وداً بود، وحباً بحب، يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ (١٠)﴾ [سبأ: ١٠].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في هذه الآية: "والآية تصور من فضل الله على داود عليه السلام أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في تسابيحه، أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات، فاتصلت حقيقتها بحقيقته، في تسبيح بارئها وبارئه، وسبحت معه الجبال والطير، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة، تنتهي معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع، ...، فإذا هي

تتجاوب في تسبيحها للخالق، وتتلاقى في تناغم واحد، وهى درجة من الإشراق والصفاء والتجرد، لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله"(٤٠).

ونبينا ﷺ - وهو خير من زكاه الله - قامت بينه وبين الجوامد والمخلوقات عاطفة من الحب والألفة، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: ((أحد جبل يحبنا ونحبه))(٤١).

وليست هذه المحبة والألفة والمودة شيئاً سلبياً أو عديم الأثر، بل لها من الآثار المادية والمعنوية ما يعظم شأنه، فهى تورث المؤمن السعادة والأنس، وتطرد عنه أى شعور بالوحشة أو الغربة، بل قد تدفعها العاطفة إلى تجاوب وانفعال أكثر مما يكون بين الإنسان وأخيه الإنسان، ومن تمام الحب والألفة. إن هذه المخلوقات تحن لبعد المؤمن عنها، وتأسف على فراقه وموته، وهذا ما حدث في قصة حنين الجذع المشهورة.

وقد تتجاوز هذه الحدود وتشمل الريح والوحوش والحجر والشجر وكل الكائنات، حيث تكون في تناغم وانسجام تام مع الذاكرين، ورد في الأثر أن الجيش الإسلامي الذي فتح إفريقيا بقيادة عقبة بن نافع رضي الله عنه مرّ بوادٍ موحش مملوء بالحيات والسباع، لم يسكنه أحد من قبل لما فيه من هذه الدواهي، ويسمى وادي قمونية(٤٢)، فوقف عقبة بن نافع رضي الله عنه ونادى ثلاث مرات: ((أيتها الحيات والسباع، إنا أصحاب رسول الله ﷺ، إنا نازلون فارتحلوا))، فإذا بالحيات تخرج، وإذا الوحوش تحمل صغارها وترحل جميعاً. ويؤكد المؤرخون أن هذا المكان ظل نظيفاً طوال أربعين سنة.

وتظهر مثل هذه الكرامات للآخرين من أمة محمد ﷺ، وهذا في الذي بشّر به عليه الصلاة والسلام حيث قال: ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود))(٤٣).

قال ابن حجر رحمه الله: "وظاهر الحديث أن النطق يكون حقيقة، ويحتمل المجاز، بأن يكون المراد أنهم لا يفيدهم الاختباء، والأول هو الأظهر"، ولكن يجب أن ننتبه للشرط الذي ورد في هذا الحديث وهو الإسلام والعبودية لله «يا مسلم يا عبد الله»، أما الكافر فلا حب، ولا إلفة، ولا مودة، ولا انسجام بينه وبين الكائنات والمخلوقات، بل هو البغض والكره والضيق.

يحكي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ عن مشهد إغراق فرعون فيقول له: ((لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر - الطين الأسود - فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له))(٤٤).

وليس جبريل فقط بل كل المخلوقات قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدخان: ٢٩].

والناس يجهدون أنفسهم بحثاً عن السعادة، وينشدون طمأنينة قلوبهم وجمع شتاتها، ويسألون عما يزيل وحشتهم وغربتهم في هذا الصخب الداوي الذي ما أغنى عنهم شيئاً، وهم إذ يفعلون ذلك لا يتجاوزون البحث في الماديات، ذلك مبلغهم من العلم، ونحن لا ننكر أن يكون للماديات شيء من الأثر في إحداث ما يريدون ولكن المورد العذب، والنهر الفياض، والبلسم الشافي، و الترياق الواقي، لما يبحثون عنه، إنما هو في ذكر الله ﷻ والقرب منه، وتلقي ما يتنزل من رحماته، فحينئذٍ يجدون ضالتهم ومن ذاق عرف، قال إبراهيم بن أدهم: "نحن في لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف"(٤٥).

وقال: إبراهيم بن آدهم ﷺ: "أهل الليل في ليلهم كأهل الباطل في باطلهم"، والذكر من أعظم وسائل السعادة والطمأنينة، وإهماله من أهم أسباب الشقاء والقلق. يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[طه: ١٢٤].

قال العلماء: "في ذكر الله هنا قولان: أحدهما أنه إذا ذكر العبد ربه فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله، ...، والقول الثاني: أن ذكر الله ها هنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله"(٤٦).

وليست هذه الآثار للذكر فقط، ولكنها لوسائل التزكية عموماً، يقول الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا رحمه الله: "وللإيمان الصادق، والعبادات الصحيحة، والمجاهدات في سبيل الله نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده"(٤٧).

ويقول ابن القيم رحمه الله: "والأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع متأنس وكل عاصٍ مستوحش، كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس(٤٨) "

ولا يمكن لمن جعلوا الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ومنتهى آمالهم أن يدركوا هذه الآثار المباركة، إنما يدركها من ذاقها، ومن ذاق عرف، ولهذا قال بعض العارفين: "إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"، ويقول ابن تيمية رحمه الله: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة".

يلتمس الناس الشرف والمكانة في وجهات مختلفة، وقد يسيئون إلى كرامتهم وصولاً لما يلتمسون، فهذا شاعر ذكرته امرأة بالإساءة ففرح لمجرد أنها ذكرته فقال:

لـــــئن ســـــاءني أن نلـــــتني بمـــــساءة   لقـــــد ســـــرني أني خطـــــرت ببالـــــك

فإذا كان هذا يفرح لمجرد ورود اسمه على لسان امرأة، فما بالنا لمن يذكره ربه في عليائه وجبريل والملائكة المقربون؟! والتزكية هي طريق المسلم إلى ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[البقرة: ١٥٢].

ويعلق على هذه الآية سيد قطب ويقول: "ولقد ذكر المسلمون الله فذكرهم ورفع ذكرهم ومكنهم من القيادة الراشدة، ثم نسوه فنسيهم، فإذا هم همل ضائع، وذيل تافه ذليل، والوسيلة قائمة، والله يدعوهم في قرآنه الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[البقرة: ١٥٢]"(٤٩).

وحتى لا يقصر أحد مفهوم التزكية الواسع على الأذكار والوظائف، أقول إن من السلف من فسر الذكر في الآية السابقة بالطاعة.

قال سعيد بن جبير: ((الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره، وأنا أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن))(٥٠).

ولنتأمل في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[الأحزاب: ٤١-٤٣]. فالتزكية جعلت صاحبها أهلاً لأن يصلي عليه الله ﷻ وملائكته البررة.

ومع طول الطريق وكثرة مشقاته وعقباته، يحتاج المسافر إلى عدة وزاد وثبات يعينه على المواصلة والمواجهة، ولا حول للعبد ولا قوة إلا بإذن الله، فهو المثبت المعين، ولولاه ما رفع المسلم قدماً ولا وضع أخرى، ولا ثبت على الخير لحظة واحدة. ولكن للثبات عوامل وأسباباً بها يوفق الله سبحانه ويثبت عباده، نختار منها ما يتعلق بموضوع التزكية.

فاللجوء إليه سبحانه بالذكر والتأمل في خلقه، والصحبة الصالحة، والفرائض والنوافل، والطاعة والعمل الصالح، والصوم وما فيه من روحانية عالية تتجلى وتتنزل على الصائمين والقائمين والركع السجود، والإنفاق في سبيل الله، وحب المساكين، والدعاء، وبذل الجهد والهمة العالية، والجلوس في حلق العلم، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، والرجاء والخوف منه ﷻ، وغض البصر عن الحرام، وأكل الحلال، كلها وسائل للنجاة من الفتن وتقلبات الحياة، وكان ﷺ يكثر في دعائه أن يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك))، وأيضاً كان يقول: ((اللهم يا مصرف القلوب اصرف قلوبنا على طاعتك))(٥١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[يونس: ٥٧-٥٨].

تزكية النفوس من الأهداف الكبرى التي أرسل إليها النبي ﷺ وإخوانه من المرسلين، وقد جعل الله سبحانه الفلاح معقوداً بها، كما جعل الخسران والخيبة في إهمالها، أفبعد هذا يظن أحد أنها عمل اختياري يفعله من يشاء ويتركه من يشاء؟! وقد جاء الأمر صريحاً بإصلاح النفوس وتعهدها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥]. جاء في تفسير القرطبي: "معناه: احفظوا أنفسكم من المعاصي"(٥٢).

وقال ابن كثير: "يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم"(٥٣).

وأخيراً فإن التزكية واجبة لأنها مظهر عظيم من مظاهر العبودية التي خلقنا من أجلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات: ٥٦].

فلا يليق بعاقل أن يشغل عن قضيته ورسالته الأساسية، وقد ورد في الحديث القدسي: ((يا أيها الناس إني لم أخلقكم لأستأنس بكم من وحشه، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم على دفع أمرٍ عجزت عن دفعه، ولا لجلب منفعه ولا لدفع مضرة، ولكن خلقتكم لتعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً))(٥٤).

فالسودان في ظل هذه الظروف والتحديات القائمة، وتكالب قوى الشر والبغي والعدوان، وتداعيها عليه، ليس له عاصم الا بإنزال برامج تزكية النفس المختلفة، في جميع مجتمعه، باعتباره أمضى سلاح، وأقوى من القنابل الذرية الفتاكة، فهو السلاح الذي استعمله الأنبياء والمرسلون وأصحابهم الكرام، ومن بعدهم المصلحون والصالحون، وهو العلاج الناجع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكّها أنت خيرُ من زكّاها، أنت وليُّها ومولاها، ونسأل الله الكريم أن يمن علينا بالهداية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خاتمة

وفي الختام نحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه جميعاً، وبعد...

فقد اجتهدت – ولله الحمد والمنة – في جمع مادة هذا البحث في مباحث ورتبتها بالصورة التي ظهرت بها، فإن كان من توفيق فهو من الله سبحانه، وإن كان من قصور فهو النقص المستولي على جملة البشر كما قيل:

مـــن يجـــد عيبـــاً يـــسد الخلـــلا   جـــلّ مـــن لا عيـــب فيـــه وعـــلا

ويبقى الكلام في التزكية والكتابة فيها من الأمور المطلوبة، بل يجب أن تأخذ مكانها اللائق بها، وألا نكتفي بما في مثل هذه البحوث، وفيما كتبه الأولون الزاد الوافر لمن أراد إصلاح نفسه والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجـــع والمصــادر

- إحياء علوم الدين، محمد أبو حامد الغزالي، ط٢، القاهرة ١٩٩٢م.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ط٣، دار الحديث، بدون تاريخ.
- البداية والنهاية، ابن كثير عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، ط١٣، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م، بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط٢، ١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربي القاهرة.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، تحقيق أبي حذيفة عبيد الله بن عالية ط٤، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- العقيدة جوهرها وآفاقها، الشيخ محمد الخطيب، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- المستخلص في تزكية النفس، للأستاذ سعيد حوى، ط٢، دار الكتاب العربي القاهرة، بدون تاريخ.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، إستانبول، المكتبة الإسلامية، ١٩٨٤م.
- تحفة الأحوذي في شرح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ طباعة.
- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين، للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط١، مكتبة الصفا، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- ترتيب القاموس، طباعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٩٧م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير، ط١٣، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ط٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، دار ابن كثير، بدون تاريخ.
- حياة الصحابة، للكاندهلوي، دار الكتب الثقافية والعلمية.
- ربانية لا رهبانية، للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.
- سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- عون المعبود في سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، بدون تاريخ.
- فتح القدير، للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط١، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٣م.
- فقه السنة، السيد سابق، ط٨، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط١١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الشروق، القاهرة.
- كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
- كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، ط٣، ١٣٥١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الجيل، بدون تاريخ.
- منهج التابعين في تربية النفوس، عبد الحميد البلالي، ط٢، دار ابن كثير، بدون تاريخ.

الهوامش

(١) رواه أصحاب السنن.

(٢) انظر: تفسير القرطبي، ٢٤٦/٥.

(٣) انظر: تفسير القرطبي، ٢٤٦/٥.

(٤) انظر: ربانية لا رهبانية، ص١٠.

(٥) انظر: المستخلص في تزكية الأنفس، ٣.

(٦) انظر: المرجع السابق، ٢٨.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير، ٥١٦/٥، وفتح القدير للشوكاني، ٤٤٩/٥.

(٨) انظر: الجواب الكافي لابن القيم، ص١٣٠، ومعنى انقمع ذل أو استخفى.

(٩) انظر: فتح القدير للشوكاني ١٧٤/٥.

(١٠) انظر: تفسير القرطبي ٢٤٩/١٧.

(١١) الحديث رواه الترمذي وقال: "حديث حسن صحيح غريب"، انظر الترمذي ح(٣٧١٣)، باب رقم ٦٩، تحفة الأحوذي ٣١٨/٩، دار الكتب العلمية بيروت، بدون تاريخ طباعة.

(١٢) انظر: ربانية لا رهبانية، ص١٣، ١٤، والعالم الأول الذي رفض المال هو العز بن عبد السلام، والثاني هو الميرزا مظهر الدهلوى الهندى من مشايخ القرن، والثالث هو عالم دمشق الشيخ سعيد الحلبي من علماء القرن الماضي.

(١٣) انظر: تفسير هذه الآية في ظلال القرآن لسيد قطب، ٧١٢/٢-٧١٣

(١٤) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم، ١٨٢/٢.

(١٥) لمزيد من الفهم والاستفادة من النصوص المشابهة يمكن الرجوع لكتب التفسير لمراجعة الآيات التي أوردها الكتب التفسيرية الموضوعية أو مراجعة كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

(١٦) رواه الترمذي وقال"حديث غريب"، انظر تحفة الأحوذي بشرح الترمذي، ح(٣٧٥٧)، ٣٥٩٨/٩.

(١٧) رواه مسلم، وانظر: «تحفة الذاكرين»، ص٢١١، وهناك أدعية كثيرة للمجاهدين في مواقفهم المختلفة قبل اللقاء وعند التحرك وعند المواجهة وعند الحصار وبعد النصر... إلخ.

(١٨) انظر: حياة الصحابة للكاندهلوى، ٣١١/٢، وفي الجزء الأول منه فصول عن الصوم والصلاة والذكر والدعاء في الجهاد وكلها ضرورة لتزكية المجاهدين.

(١٩) انظر: البداية والنهاية، ٣٦/٤، دار الريان للتراث، ط الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٨٨م.

(٢٠) انظر: فتح الباري، ٣٠/٦.

(٢١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٤١/٤-٤٤.

(٢٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٤١/٤-٤٤.

(٢٣) انظر: منهج التابعين في تربية النفوس، عبد الحميد البلالى، ١٠٦.

(٢٤) انظر: ربانية لا رهبانية، ٤٣-٦٩.

(٢٥) انظر: ربانية لا رهبانية، ١٣-١٤.

(٢٦) انظر: ربانية ولا رهبانية، ١٥.

(٢٧) انظر: الجواب الكافي، ٢٥٧.

(٢٨) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ونافع: «يدافعُ» بالألف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يدفعُ» بغير ألف، انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد في القراءات السبع، ٤٣٧.

(٢٩) انظر: أسباب النزول للسيوطي، ص٢٧٩، وفتح القدير للشوكاني، ٢٤٤/٥، وحياة الصحابة، ٦٦٨/٣.

(٣٠) انظر: تفسير القرطبي ٦-٤٢٤.

(٣١) انظر: في ظلال القرآن، ١٨٠٩/٢.

(٣٢) انظر: فتح القدير للشوكاني، ٣٦٩/٣.

(٣٣) انظر: الجواب الكافي لابن القيم، ص٦٤.

(٣٤) انظر: المرجع السابق، ص٦٦.

(٣٥) انظر: تحفة الذاكرين للشوكاني، ١٠٦.

(٣٦) رواه البخاري، ح(٦٣١٨)، الفتح، ١٤٣/١١، باب ١١، ط٣، ٢٠٠٠م، مكتبة دار السلام الرياض، مكتبة الفيحاء دمشق.

(٣٧) رواه الطبراني والبيهقي بإسناد حسن، انظر: جامع العلوم والحكم، ص٣٣١.

(٣٨) انظر: إحياء علوم الدين، ٣٩٩/٤.

(٣٩) انظر: الجواب الكافي لابن القيم، ص٦٦.

(٤٠) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، ٢٨٩٧/٥، بتصرف.

(٤١) رواه البخارى والترمذي وأحمد والطبراني عن أنس وغيره، انظر كشف الخفاء، ٧٥/١-٨٥.

(٤٢) قمونية بلد بإفريقيا. انظر: ترتيب القاموس، ٦٩٣/٣، باب القاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٤٣) الحديث رواه البخاري، انظر: فتح الباري شرح البخاري، ح(٢٩٢٥)، ١٢٦/٦، باب ٩٤،ط٣، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مكتبة دار السلام الرياض، مكتبة الفيحاء دمشق، الطبعة الجديدة.

(٤٤) انظر: ابن كثير، ٤٣٠/٢.

(٤٥) انظر: مدارج السالكين، ص٤٨٨-٤٨٩، وإغاثة اللهفان، ١٩٧/٢.

(٤٦) انظر: مدارج السالكين، ٥٣٤/٢-٥٣٥.

(٤٧) انظر: الأصل الثالث من الأصول العشرين.

(٤٨) انظر: مدارج السالكين، ٤٢٣/٢.

(٤٩) انظر: في ظلال القرآن، ١٤١/١.

(٥٠) انظر: تفسير القرطبي، ١٧١/٢.

(٥١) وجاء عن أم سلمة قالت: كان أكثر دعائه ﷺ: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))، قال الترمذي: "حديث حسن"، انظر الترمذي، ح(٣٧٥٢)، تحفة الأحوذي شرح الترمذي، للحافظ المباركفوري، ٣٥٤/١، باب ٩٥، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(٥٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٣٤٢/٦.

(٥٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١٠٩/٢.

(٥٤) انظر: كتاب العقيدة جوهرها وآفاقها للشيخ محمد الخطيب، ص٩٨-٩٩.